المجلة العربية للعلوم و نشر الأبحاث
المجلد الثاني - العدد (5) : 4- يونيو 2016؛ ص. 192-207 ؛ بحث رقم :S14516 .

دراسة بحثية

الشّعر التعليميّ في العصرين المملوكيّ والعثمانيّ: عوامل الازدهار والانحدار

د. سالم بن سعيد بن ناصر البوسعيدي
محافظة الداخلية - سلطنة عمان
البريد الإلكتروني : salem2226@gmail.com

الملخص

يتناول هذا البحث الشعر التعليميّ في العصرين المملوكيّ والعثمانيّ، مركزاً على أسباب ازدهاره، ثم عوامل تقهقر حضوره بعد ذلك، وقد بدأ البحث بمقدمة موجزة عن الشعر التعليمي ومراحل تطوره في الأدب العربي وصولاً إلى العصرين المملوكيّ والعثماني، ثم تناول البحث أسباب ازدهار الشعر التعليمي في العصرين المملوكي والعثماني، ثم تطرّق الباحث إلى نماذج من الشعر التعليميّ في هذه الفترة (في القراءات والفقه والنحو والبلاغة والحيوان والرياضيات)، بعد ذلك تطرق البحث إلى سمات الشعر التعليمي العامّة في هذا العصر من حيث اعتماده على الإيجاز المخل، والاهتمام بالشروحات اللفظية، مما أدى إلى نتائج خطيرة في المستوى العلمي، تناولها البحث بشيء من التفصيل، وكان لهذه النتائج أثرها في تراجع حضور الشعر التعليمي في واقعنا اليوم، ليناقش البحث آفاق مستقبل الشعر التعليمي وشروط إصلاح الخلل، والمجالات التي يمكن أن يحضر فيها الشعر التعليمي من جديد.

الكلمات المفتاحية : الشعر التعليميّ، العصران المملوكي والعثماني، عوامل الازدهار والانحدار

المقدمة

الشعر التعليميّ في النتاج الثقافيّ العربيّ ظاهرة لا ينكرها معاين، ولا يجهلها مطلع على المشهد الأدبيّ والفكريّ، خاصّة أنّ المناهج التقليدية في المساجد والكتاتيب كانت المتون العلميّة الفقهيّة واللغويّة والتاريخيّة والعقديّة عصب الحياة العلميّة فيها، ثم بدأت بالتلاشي من واقعنا العربي، خاصّة بعد الهجمة العنيفة التي تلقتها على يد العلماء والتربويين والمفكرين، إلى حدّ أنه تمّ إرجاع أسباب التخلف إليها، ويرى الباحث أنّ هذه الظاهرة لم تنل حظها من الدّراسة، خاصّة حول أسباب ازدهارها، وأسباب تراجع حضورها، ولهذا قدم هذا البحث بعنوان " **الشّعر التعليميّ في العصرين المملوكيّ والعثماني: عوامل الازدهار والانحدار**". فمن خلال هذه الدّراسة يظن الباحث أنّه سيلقي الضوء على ظاهرة تربويّة علميّة فكريّة عربيّة، موضحاً أسباب ازدهارها وتراجعها.

إشكالية البحث وأسئلته

يأتي تساؤل الدراسة عن أسباب ازدهار الشعر التعليميّ في العصرين المملوكيّ والعثمانيّ، ثم عن أسباب تراجعه، وتتفرع عدة تساؤلات عن ذلك يسعى البحث إلى الإجابة عليها وهي:

- ما الشعر التعليميّ؟
- ما أسباب وجوده؟
- ما أسباب ازدهاره؟
- ما أسباب تراجعه؟
- ما هو واقع الشعر التعليميّ؟

الدّراسات السابقة

لم يطّلع الباحثين إلا على دراسات قليلة متخصصة بدراسة الشعر التعليميّ العربي بعضها مقالات في مجلات وهي:

- غوشة، عصمة عبدالله: "الشعر التعليمي في القرون الأربعة الأولى" أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة..1970م.
- أبو حشيش، عبد العزيز حسن: "الشعر التعليمي منذ بداية العهد العباسيّ إلى نهاية العهد المملوكي" (1517/923-750/132)" *أطروحة دكتوراه غير منشورة*، معهد الآداب الشرقية، جامعة القديس يوسف. 1999م.
- الأحمد ياسر إبراهيم محمود علي: "شعر المتون في التراث العربي من القرن الثاني حتى القرن الثامن، دراسة في الموضوعات والأساليب "*رسالة ماجستير غير منشورة*، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية. 2006م.
- الحلبوني، خالد: "الشعر التعليمي، بداياته، تطوره، سماته"، *مجلة جامعة دمشق*، المجلد:22- العدد:3+4، ص ص 85-101. 2006م.
- زاده، جواد غلام علي: " الشعر التعليمي، خصائصه، ونشأته في الأدب العربي"، *مجلة العلوم الإنسانية*، العدد:14(2)، ص ص 47-62. 2007م.

غير أنّ هذه الدراسات كلها لم تركز على أسباب الازدهار وعوامل التراجع في العصرين المملوكيّ والعثماني، لأنها انشغلت بالعصر العباسيّ أكثر من غيره.

المنهج المتبع

اعتمد الباحث المنهج الوصفيّ التحليليّ في تتبع الشعر التعليميّ في العصرين المملوكي والعثماني، لتحديد أسباب ازدهار الشعر التعليميّ في هذين العصرين وأسباب انحداره بعد ذلك، واعتمد الباحث على المنهج الوصفيّ التحليليّ لأنه يعتمد على التحليل المباشر، ويستنتج سمات الشكل والمضمون، ويشير إلى مواطن الجدة والإبداع وينبه إلى مواضع النقد والضعف الذي يعيبه البعض في هذا النوع من الشعر.

الخطة والنظام المقترح

أهم النقاط الأساسيّة التي أرغب في معالجتها من خلال هذه الدّراسة:

1-مقدمة في الشعر التعليميّ ومراحل تطوره في الأدب العربي.

2-أسباب ازدهار في العصرين المملوكيّ والعثماني.

3- نماذج من الشعر التعليميّ في هذه الفترة.

4- عوامل انحداره وتراجعه.

5- واقع الشعر التعليميّ وآفاق مستقبله.

6- رؤية عامة حول الشعر التعليميّ وأثره.

مقدمة في الشعر التعليميّ ومراحل تطوره في الأدب العربي

الشعر في صميم تراثنا العربيّ، فقد حَفِظَ بِهِ العربُ جزءاً كبيراً من تاريخهم وتراثهم، ومآثرهم وعاداتهم وأحوالهم الاجتماعيّة، وما ذلك إلا لخفّته على ألسنتهم، وسهولة حفظه وروايته. وبما أنّ العلم يحتاج إلى حفظ القواعد والأحكام فقد فَطِنَ مُصَنِّفُو العلومِ إلى أنه بالإمكان توظيفُ نظمِ الشعر وإيقاعاته في صياغة منظومات علميّة تُسهم في تسهيل تَعَلُّمِه، وقد عرف "النظم" أو الشعر التعليميّ منذ وقت مبكر من العصر الجاهليّ فكانت البذور الأولى للشعر التعليميّ (أو المنظومات أو الأراجيز أو النظم العلمي)[1]، وتطوّر حال الشعر التعليميّ في العصر الأمويّ حين ظهر الرجّاز، فنظموا قصائد تُعنى بجمع الألفاظ لغرض تعليميّ، مع استمرار نظم بعض العلوم. ثم تطوّر النظم وانتشر مع بداية القرن الثالث، وعزّز ذلك الإقبال الكبير الذي لقيه من الناس، فأقبلوا عليه حفظاً وشرحاً وتدارساً. وبتوسّع الدولة الإسلامية أسرع من أسلم من شعوب البلاد المفتوحة جميعاً إلى تعلّم لغة القرآن والحديث النبويّ، فلم يمض قرن حتى أخذت العربيّة تسود في كل أنحاء العالم الإسلاميّ، وملكت ألسنة الناس وقلوبهم، وكان هذا تطوّراً خطيراً، إذ أصبحت معظم شعوبها عربيّة اللغة والتفكير والشعور والثقافة والأدب والحضارة، وأذكى الإسلام جذوة المعرفة في نفوس العرب إذ دفعهم دفعاً قوياً إلى العلم والتعلّم. فلم يمض قرن حتى وُضعتْ أصول العلوم اللغويّة والدينيّة، وأخذ العرب يلمّون بما لدى الأمم المفتوحة من ثقافات متباينة، والشاعر ابن عصره، ووليد مجتمعه، فقد تأثّر بهذا الاتّجاه العقليّ، ومن أهم مظاهر ذلك التأثّر ازدهار المنظومات العلميّة. أضف إلى ذلك حاجة وأحوال العصر العباسيّ العلميّة، فقد ازّدهرت المنظومات نتيجة تحوّل طرأ على الحياة الإسلاميّة منذ صدر الإسلام وحتى بداية العصر العباسيّ، بيد أنّ الشعر التعليميّ عرف أوج ازدهاره في العصرين المملوكيّ والعثماني.

أسباب ازدهاره في هذه الفترة:

يمكن تحديد بداية هذه المرحلة بسقوط بغداد على يد المغول (656هـ)، حيث أحرقت الكتب واندرست المدارس، وطورد العلماء، فانتشرت المنظومات لسهولة حفظها وتعذّر وجود أمهات الكتب، وكانت المنهج التربويّ الأقدر والأسهل، وما زالت تنتشر حتى جاء عصر المماليك الذي كثر فيه هذا اللون من النظم

[1] مصطلح الشعر التعليميّ "ترجمة حديثة للمصطلح الفرنسي " "poeme Didactiqueوللمصطلح الانجليزيّ " "Did acticوترجع المصطلحات الأوربيّة إلى أصل يوناني " "Didacktioksعلم يعلّم تعلّماً. وعليه فتسمية الشعر التعليميّ مصطلح حديث نسبيّاً، "لم يكن معروفاً لدى القدماء من العلماء والمفكّرين والطلبة العرب، أمّا ما عرف به الشعر التعليميّ في التراث العربي فهو (المنظومات) أو(المقاطيع) أو(النظم العلميّ)، أو(الأراجيز).

واتّسعت موضوعاته، فشمل كل العلوم، وأقبل الناظمون على النظم ليسروا على الطلاب سبل الإلمام بالمعارف وحفظها وسرعة استحضارها وقت الحاجة[2].

يقول علي يعقوب: "يعتبر العهد المملوكيّ من أهم العهود التي نما فيها الشعر التعليميّ بعامّة، والشعر التعليميّ الدينيّ بخاصّة، لأن كثيراً من النتاج العلميّ والفكريّ قد دُمّر على أيدي التتار في هجمتهم الرهيبة على بلاد الحضارة والمدنيّة والثقافة، فلا غرابة إذن أن يكون النتاج التأليفيّ بعد الكارثة مصبوغاً بصبغة دينيّة بغية تحصين الشريعة الإسلاميّة من جهة، ولأنّ النظم في هذا الميدان قد لا يحتاج إلى أصول ومراجع في بعض الأحيان"، ولسهولة حفظه على الناشئة من جهة أخرى[i]، وهكذا تتابع النظم واستفحل وذاع إلى ما لا نهاية في جميع الأقطار، حتى أصبحت حرفة ومهنة يتبارى فيها الناظمون ويتنافسون أيهم أجود وأمكن فيها؟!، فهذا يفتخر بالإيجاز، وذاك بالبسط مع الألغاز، وآخر بمسلك غريب عن العلم كالغزل مثلاً.

نماذج من الشعر التعليميّ في هذه الفترة

ظهرت في هذه الفترة أشهر المنظومات، فجاءت على سبيل المثال منظومة الشاطبيّ الجامعة في القراءات.

للإمام ابن فرّه الشاطبيّ الأندلسيّ[3] (ت 590ه) ومما ذكره في باب البسملة قوله:

وَبَسْـــمِل بَـــيْنَ السُّـــورَتَيْن بسُـــنَّةٍ رِجَـــالٌ نمَوْهَـــا دِرْيـــة وَتَحَمُّـــلاَ

وَوَصْـــلكَ بَـــيْنَ السُّـــورَتيْن فصَـــاحَةٌ وَصِـــلْ وَاسْـــكَتنْ كـــلُّ جَلايَـــاهُ حَصَّـــلا[4]

ولا يمكن إغفال مقدمة الجزرية لابن الجزري (ت833ه)[5] الذي جمع ونظم القراءات العشر، وله كذلك طيّبة النشر في القراءات العشر؛ ففي مقدمة الجزرية يقول في صفات الحروف:

صـــفاتها جهـــرٌ ورخـــوٌ مســـتفل منفـــتحٌ مصـــمتةٌ والضـــدُّ قـــل

مهموســـها فحثّـــهُ شـــخصٌ ســـكت شـــديدها لفـــظُ أجـــد قـــطٍ بكـــت[6]

أمّا النظم في مجال الفقه فكثير، لما للفقه من أهمية في حياة الناس وتعاملهم، وممن نظم في الفقه الرَّحبي (ت579ه)[7]، الذي نظم أرجوزة في أحكام الإرث الإسلامي، وعرف كتابه بمتن الرحبيّة نسبة إليه، وقد

---

[2] السلمي ، عبدالله عويقل، المتون والشروح والحواشي والتقريرات في التأليف النحوي ، 2015، http://www.m-a-arabia.com/vb/showthread.php?t=9135

[3] القاسم بن فيرة بن خلف الرعيني، أبو محمد الشاطبي، إمام القراءة، ولد بشاطبة، وتوفي بمصر، عالم في الحديث والتفسير (الزركلي، الأعلام، 134/5)

[4] الشاطبي، القاسم بن فيرة (ت 590ه)، **متن الشاطبيّة**، القاهرة، دار السلام، ط1، ص4

[5] ابن الجزري، محمد بن علي بن يوسف، له تصانيف معروفة في القراءات والروايات والتجويد. (شمس الدين السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، 527/9)

[6] ابن الجزري (ت 833ه)، **متن الجزريّة**، القاهرة، مكتبة القاهرة، ص6

[7] الرحبي، محمد بن علي، فقيه عالم، صنّف كتباً كثيرة (السبكي، طبقات الشافعية، 89/4)

شرح هذا المتن كثير من العلماء منهم: أبو بكر أحمد السبتي، وجلال الدين السيوطيّ، وعبد القادر الفيوميّ، ومحمد بن صالح الغزيّ، ومما قاله:

أســـباب ميـــراث الـــورى ثلاثـــه كـــل يفيـــد ربّـــه الوراثـــه
وهـــي نكـــاحٌ وولاءٌ ونســـبْ مـــا بعـــدهنّ للمواريـــث ســـببْ
ويَمنـــع الشـــخص مـــن الميـــراثِ واحـــدةٌ مـــن علـــلٍ ثـــلاث
رقٌّ وقتـــلٌ واخـــتلاف ديـــنِ فـــافهم فلـــيس الشـــك كـــاليقينِ[8]

تتابعت المتون النحويّة المنظومة حتى وصلت ذروتها في القرن السابع الهجريّ أثناء عصر المماليك، واتّسعت رقعتها وكثر الناظمون لها، وكان من أبرزهم ثلاثة: ابن معطٍ (ت 628هـ)[9]، فقد كان أول من وضع ألفيّة في النحو، وقد بناها على الرجز قائلاً:

وبعد فالعلم قليل القدرِ وفي قليله نفاد العمرِ
فابدأ من الأهم فالأهمْ فالحازم البادئ فيما يستتمْ
وذا حدا إخوان صدقٍ لي على أن اقتضوا مني لهم أن أجعلا
أرجوزةً وجيزة في النحو عدتها ألفٌ خلتْ من حشو
لعلمهم بأن حفظ العلمِ وفق الذكي والبعيد الفهم
لاسيما مشطور بحر الرجزِ إذا بني على ازدواج موجز
أو ما يضاهيه من السريع مزدوج الشطور كالتصريع[10]

ثم كان ابن الحاجب (ت646هـ)[11] الذي نظم منظومة "شرح الوافية نظم الكافية"، ومما قاله في حروف العطف:

الـــعـــطـــف بـــالـــواو وفـــا وثـــمّـــا حـــتـــى وأو وأم وقـــيـــل إمّـــا
ولا وبـــل ولـــكـــن المـــخـــفـــفـــه وهـــي فـــي إعـــرابـــهـــا مـــؤتـــلـــفـــه[12]

وابن مالك (ت672هـ)[13] وهو صاحب الألفية الأشهر. ومنها قوله في الكلام:

---

[8] السعدي، أحمد محمد سعيد (2010م)، **مجموع أمهات المتون**، دمشق، دار الرواد، ط3، ص47

[9] يحيى بن عبد المعطي الزواوي المغربي، يكنى بأبي الحسين، وبأبي زكريا، أما شهرته في المشرق والمغرب فهي ابن المعطي، ويعد أول من ألف في النحو عن طريق النظم الشعري بكتابه الدرر الألفية، كما له العديد والكثير من المصنفات والكتب في شتى الصنوف العلمية. (الذهبي، سير أعلام النبلاء، 22 / 324)

[10] الزواوي، يحيى بن عبد المعطي المغربي (ت628هـ)، **الدرة الألفية في علم العربية**، ضبطها وقدم لها سليمان إبراهيم البلكيمي، القاهرة، دار الفضيلة، ص17

[11] أبو عمرو عثمان بن عمرو بن الحاجب، فقيه مالكي، مقرىء بارع، له تصانيف منها الكافية في النحو والشافية في الصرف وشرح المفصل للزمخشري (ابن خلكان، وفيات الأعيان، 248/3)

[12] ابن الحاجب، أبو عمر عثمان (646هـ)، **شرح الوافية نظم الكافية**، تحيق موسى بناي علوان، النجف الأشرف، مطبعة الآداب، ص398

[13] محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني عالم لغوي كبير وأعظم نحوي في القرن السابع الهجري، وُلِد بالأندلس، وهاجر إلى الشام، واستقر بدمشق، ووضع مؤلفات كثيرة، أشهرها الألفية، التي عُرِفت باسم "ألفية ابن مالك". (الزركلي، الأعلام،233/6)

كلامنا لفظٌ مفيدٌ كاستقمْ واسمٌ وفعلٌ ثم حرفٌ الكلمْ
واحدة كلمة، والقول عمْ وكلمة بها الكلام قد يؤم
بالجر والتنوين والندا وأل ومسند للاسم تمييزٌ حصلْ
بنا فعلتَ وأتت ويا افعلي ونون أقبلنّ فعلٌ ينجلي[14]

وطال النظم العلوم البلاغيّة، رغم أنّ النَّظم في البلاغة جاء متأخّراً عن النظم في النحو ؛ لأنّ قواعد البلاغة لم تثبت على شيء من جهة، ومن جهة أخرى لأنّ الأدباء لم يعطوا هذا العلم أهمية كما فعلوا مع سائر العلوم الأخرى كالنحو والفقه. ومن النُّظَّام في هذا الميدان محب الدين الحلبي (ت 815ه)[15]، له أرجوزة عنوانها "مائة المعاني والبيان"، ومنها قوله في علم البديع يقول:

عِلْـمُ البَـدِيع وَهْـوَ تَحْسِـينُ الكـلامْ بَعْـدَ رعَايَـةِ الوُضُـوح وَالمَقَـامْ
ضَـرْبَان لفْظِـيٌّ كَتجْنِـيسٍ وَرَدْ وَسَـجْع أوْ قلْـب وَ تشْـريع وَرَدْ
وَالمَعْنـويُّ وَهْـوَ كالتَّسْـهيمِ وَالجَمْـع وَالتَّفْريـقِ وَالتَّقْسِـيمِ
وَالَقـوْل بالمُوجَـب وَالتَّجْريـدِ وَالجَـدِّ وَالطِّبَـاقِ وَالتَّأْكِيـدِ
وَالعَكْـس وَالرُّجُـوع وَالإِيهَـام وَاللَّـفِّ وَالنَّشْـر والاِسْـتِخْدام
وَالسَّـوْقِ وَالتَّوْجيـهِ وَالتَّوْفِيـقِ وَالبَحْـثِ وَالتَّعْلِيـل وَالتَّعْلِيـقِ[16]

أمّا في مجال العروض، فنجد عدة منظومات في طليعتها منظومة صفي الدين الحلي (ت750ه)[17] ومنها قوله:

طَوِيـلٌ لـهُ دُونَ البُحُـور فَضَـائِلُ فعُـوُلنْ مَفَـاعِيُلنْ فَعُـوُلنْ مَفَاعِـلُ
لِمَدِيـدِ الشِّـعْر عِنْـدِي صِـفات فـاعِلأُتنْ فـاعِلنْ فـاعِلات
إنَّ البَسِـيط لدَيْـهِ يَبْسـط الأَمَـلُ مُسْـتفْعِلنْ فَـاعِلنْ مُسْـتفْعِلنْ فعِـلُ
بُحُـورُ الشِّـعْر وَافِرُهَـا جَمِيـلُ مُفـاعَلَتنْ مَفـاعَلَتنْ فعُـولُ
كـلُّ الجمـال مـن البحـور الكامـل مُتْفـاعِلنْ مَتَفـاعِلنْ مُتْفاعـل
عَلـى الأَهْـزَاج تسْـهيلُ مَفـاعِيُلنْ مَفاعِيـلُ
فِـي أَبْحُـر الأَرْجـاز بَحْـرٌ يَسْـهلُ مُسْـتفْعِلنْ مُسْـتفْعِلنْ مُسْـتفْعِلنْ[18]

[14] الحربي، عبد العزيز بن علي (1424ه)، **الشرح الميسّر على ألفية ابن مالك**، الرياض، دار ابن حزم، ط1، ص ص 23-24
[15] محمد بن محمد محب الدين ابن الشحنة الحلبي، فقيه حنفي له اشتغال بالأدب والتاريخ، من علماء حلب وقضاتها، وله تصانيف مختلفة. (الزركلي، الأعلام 44/7)
[16] مجهول (؟)، **مجموع مهمات المتون**، القاهرة، دار الفكر، ص613
[17] الحلي، صفي الدين عبد العزيز بن سرايا، شاعر عصره، نشأ في العراق ورحل إلى مصر، له مؤلفات وديوان شعر (الزركلي، الأعلام 17/4-18)
[18] الحلي (750ه)، ديوان صفي الدين الحلي، النجف الأشرف، المطبعة العلمية، ص415

وهكذا يستمرّ في استعراض البحور الشعريّة، ونلاحظ هنا أنّ صفي الدين يذكر اسم البحر في صدر البيت، ومن ثم ينتقل إلى وزن البحر في عجزه.

كما طال النظم العلميّ أنواع العلوم فممن نظم في الحيوان كمال الدين محمد بن موسى الدميريّ (ت 808ه)[19]، فيقول في خيل السباق

مهمّة خيل السّباق عشره في الشرح دون الروضة المعتبره
وهي حجلٌ ومصلٌ وتالي والبارع المرتاح بالتوالي
ثم حظى عاطف مؤملُ ثم السكيتُ والأخير الفسكلُ[20]

فأسماء خيل السبق العشرة، الحجل وهي الفرس الذي يأتي أولاً، ثم المصل للثاني، والتالي للثالث، والبارع للرابع، والمرتاح الخامس، والحظى السادس، والعاطف السابع، والمؤمّل الثامن، والسكيت التاسع، والعاشر يقال له الفسكل. وتشير الأبيات إلى اهتمام الناس بالخيل وسباقاتها.

وممن نظم في الرياضيّات ابن الياسمين (ت912ه)[21]، حيث نظم أرجوزة طويلة في الحساب والجبر، ومما قاله فيها:

على ثلاثةٍ يدور الجبرُ المال والأعداد ثم الجذرُ
فالمال كلّ عددٍ مربّعْ وجذره واحد تلك الأضلعْ
والعدد المطلق ما لم ينسبِ للمال أو للجذر فافهم تصبِ[22]

يعنى أنّ علم الجبر له ضروب هي: المال والعدد والجذر، فالمال هو كل عدد مربع، والجذر أحد ضلعيه.

أمّا الألغاز فقد حظيت بحفاوة بالغة من ذوي الاهتمام العلميّ عند العرب، وهي أنواع: ألغاز قصدتها العرب وألغاز قصدتها أئمة اللغة، وأبيات لم تقصد العرب الإلغاز بها، وإنّما قالتها فصادف أن تكون ألغازًا"[23]، ومما ظهر على هذا الصعيد من الأشعار التي تسير في اتّجاه التعليم وشحذ الذاكرة ما يمكن أن نسميه بشعر الألغاز والأحاجي، ومن الألغاز المشهورة الألغاز النحويّة، ومن هذه الأشعار مثلاً الأرجوزة النونيّة لفرج بن قاسم الصقلي (ت 783ه)[24] وقد بدأ أرجوزته بمقدمة يحمد فيها الله، وله في باب الإبدال والإعلال:

مَـــا كِلْمَـــةٌ قـــدْ أُبْـــدِلتْ عَـــيْنٌ لهَـــا إِبْـــــــدَالُهَا يَصْـــــــحَبُهُ قلْبَـــــــان

---

[19] الدميري، أبو البقاء كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى بن على الملقب بالـــ "الدميري" نظرا لانتماء أسرته إلى بلدة "دميرة" بصعيد مصر.، باحث أديب من فقهاء الشافعية، وله كتاب حياة الحيوان الكبرى. (الزركلي، الأعلام، 118/7)

[20] الدميري، **حياة الحيوان الكبرى**، المكتبة الإسلامية، ج1، ص114

[21] عبدالله بن محمد بن حجاج، عالم بالحساب والجبر، من رجال السلطان بالمغرب، بربري ألأصل، له أرجوزة في الجبر وأخرى في أعمال الجذور (الزركلي،الأعلام124/4)

[22] الماديني، محمد بن محمد سبط (ت907ه)، **اللمعة الماردينية في شرح الياسمينية**، تحقيق محمد سوس، الكويت، ص20

[23] السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ط1، تحقيق محمد أحمد جاد وآخرون، مطبعة حلبي، القاهرة، 1987، 578/1

[24] فرج بن قاسم الصقليّ ابن لب النحويّ، من غرناطة، كاتب عارف بالعربيّة مبرز في التفسير، قائم على القراءات، (السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، 243/1-244)

فـــــــأَوَّلٌ لآخِـــــــــر وَآخـــــــــرٌ لأول حَالاهُمَـــــــــــا ضِـــــــــــدَّان

يعني مسألة" أنيق "في جمع ناقة على" أفعل، أصله" أنوق"[25]، وممن اشتهر بالألغاز الصرصري (ت656ه)، فيقول في حرف الكاف:

وَحَـــرْفٌ مِـــنْ حُـــرُوفِ الخـــطِّ لَيْسَـــتْ عَلامَتُـــــهُ عَلَـــــى العُلَمَـــــاءِ تَخْفَـــــى

يَكُـــونُ اسْـــمًا مَـــعَ الأَسْـــمَاءِ طـــوْرًا وَطَـــوْرًا فِـــي الحُـــرُوفِ يَكـــونُ حَرْفـــا

تـــــرَاهُ يُقـــــدِّمُ الأَسْـــــمَاءَ طـــــرًّا وَيَمْنـــــعُ مِـــــنْ مُشـــــابَهَةٍ وَيُنْفـــــى

يَصِـــــيرُ أَمَامَهَـــــا مَـــــا دَامَ حَرْفًـــــا وَإِنْ سَـــــــمَيْتهُ فيَصِـــــــيرُ خلَفـــــــا

وقـــــدْ تلْقـــــاهُ بَـــــيْنَ اسْـــــم وَفِعْـــــل قـــــدِ اكْتَنَفـــــاهُ كـــــالإِبْريقِ لطْفـــــا[26]

ونجد النظم هنا أخفّ وأجمل وأكثر رونقاً من كلّ ألوان الشعر التعليميّ المنظوم في العلوم.

عوامل الانحدار

أغرم النظّام في هذه الفترة بالاختصار المفرط، وتنافسوا في ذلك، وكان من أثر هذا التقليد والتنافس في اختصار المنظومات أن جعلها تتجه اتجاهاً تربويّاً خطيراً، فقد أصبحت أشبه بالألغاز التي تحتاج لمن يفكّ طلاسمها، أو لنقل أصبحت منظومات "مغلقة"[27]، اتّسمت بالجفاف والجمود حتى صارت منفّرة، واستغرقت في الإيجاز المخلّ حتى أصبحت أقرب للترميز منها إلى الإيضاح، فاحتاجت إلى الشروح التي تراكمت بحيث فقدت قيمتها في تقديم العلوم بإيجاز.

ويمكننا القول أنّ المنهج التعليميّ أصبح يدور حول المتن لا العلم الذي يناقشه، ويتلخّص هذا المنهج في:

1 . المتن الذي هو الأساس الذي يبني عليه الطالب علمه في كل فن بحسبه.

2 . شرح لهذا المتن.

3 . حاشية على هذا الشرح.

4 . تقرير على الحاشية.

يقول علي الطنطاويّ (ت1420ه) "وكانت "في الحق" أسوأ الطرق في التدريس في كتب ألفت على أسوأ الأساليب في التأليف: "متن" موجز إيجازاً مخلاً، كأن مؤلفه بخيل كلّف بأن يرسله في "برقية" إلى استراليا، يرم أجرتها من ماله، فهو يقتصد في الكلمات، لتقل عليه النفقات،...كانت أكثر الكتب التي يعكفون عليها بعيدة عن البيان بعد الأرض عن السماء، معقّدة العبارة، أعجمية السبك، وإن كانت عربية الكلمات. فيأتي من يوضح غامض المتن، فيدخل جملة من عنده بين كل جملتين منه..وهذا هو "الشرح". ويأتي بعد ذلك من

[25] السعدي، **مرجع سابق**، ص 565

[26] السيوطي(911ه)، **الأشباه والنظائر في النحو**، بيروت، دار الكتب العلمية، ج3، ص39

[27] الأنصاري، محمد بن حسين(1433): **تكوين الذهنية العلمية**، الرياض، دار الميمامن، الطبعة الثانية ، ص 97

يضع لهذا الشرح حواشي وذيولاً، يطوّله فيجمّله أو يقبّحه ويعطّله، وهذه هي "الحاشية". ثم يجيء من يعلّق على هذه الحاشية تعليقات، وتسمى "التقريرات"، فلا الأسلوب عربي فصيح، ولا المنهج قويم صحيح[28]".

وعموم القول اتّسمت هذه المنظومات بأمرين:

1-الغلو في صناعة القوالب والأشكال التي يُقدّم فيها العلم كالمنظومات والمتون. واقتصار التعليم عليها، والمغالاة فيها، مما سبب نسيان كتب أصول العلم. خاصة مع المغالاة في المنظومات وإغفال ما عداها من وسائل التعليم.

2-المبالغة في طريقة الأداء والعرض بأسلوب التلقين، والإلقاء التقليديّ المباشر. أضف إلى ذلك طريقتها الموغلة في الإيجاز، وإغراقها في الشكليات والترميز[29].

وتنبّه بعض العلماء لهذه الظاهرة الخطيرة قبل استفحالها فسارعوا لانتقادها منذ ظهورها في أواخر العصر العباسيّ، ومنهم أبو بكر بن العربي (ت543ه) الذي أرجع سبب نضوب ماء العلم في الإسلام ونقصان ملكة أهله إلى انكباب الناس على تعاطي المختصرات الصعبة الفهم، وإعراضهم عن كتب الأقدمين المبسوطة المعاني، الواضحة الأدلة. وتابعه المحدّث عبد الحق الإشبيلي (ت581) وأبو إسحاق الشاطبي (ت590ه)، ولكن ذلك لم يمنع من تفشي هذه الظاهرة الخطيرة حتى وصلت إلى مرحلة خطيرة في العصر المملوكيّ والعثمانيّ، فهذا ابن خلدون (ت808ه) يقول في مقدمته: "إنّ كثيراً من المتأخرين ذهبوا إلي اختصار الطرق والأنحاء في العلوم، يولعون بها، و يدونون منها برنامجاً مختصراً في كل علم، يشتمل على حصر مسائله باختصار في الألفاظ، وصار ذلك مخلاً بالبلاغة، وعسراً على الفهم، وربّما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطوّلة في الفنون بالتفسير والبيان، فاختصروها تقريباً للحفظ، كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه، وابن مالك في العربية، والخونجي في المنطق، وأمثالهم وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل، وذلك لأن فيه تخليطاً علي المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه، وهو لم يستعد لقبولها بعد، وهو من سوء التعليم . . . ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلّم، بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة الفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها، لأن ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة، فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت".[30]

وهذا ابن بدران (ت1346ه) يقول "ثم الأولى في تعليم المبتدئ أن يجنّبه أستاذه عند إقرائه الكتب الشديدة الاختصار، العسرة على الفهم كمختصر الأصول لابن الحاجب والكافية له في النحو، لأن الاشتغال بمثل هذين المختصرين إخلال بالتحصيل، لما فيهما وفي أمثالهما من التخليط على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه، وهو لم يستعد لقبولها بعد، ... كما أشار إلى ذلك ابن خلدون في مقدمته"[31]

ولهذا كانت تلك المنظومات والمتون العلميّة من أسباب الانحطاط العلميّ، حيث يتم إحاطة الذهن بسوار من الحواشي اللفظية والتقريرات الشكليّة، التي شغلتهم عن ذات العلم، بل حتى عن كتاب الله Ψ

[28] الطنطاوي، علي (؟)، **ذكريات علي الطنطاوي**، بيروت، دار المنارة، الجزء الثاني، ص ص43-44

[29] محمد بن حسين الأنصاري: **مرجع سابق**.ص 15 "بتصرّف"

[30] ابن خلدون (ت808ه)، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، ص443

[31] ابن بدران (ت1346ه)، **المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ص490

حتى قال العلامة الحجوي الفاسي (ت1376ه) "فالرزية كل الرزية ما حال بين المسلمين وبين نصوص نبيهم وكلام ربهم، والرزية كل الرزية في الاشتغال بالمختصرات"[32]، وهو يشير إلى أن الاشتغال بالعلم هو غير الاشتغال بالمختصرات والمتون والتعليق عليها، حتى غدا التعليق عليها لغوياً أهم من بعدها العلميّ. "ومن المآخذ المجملة على المنظومات العلميّة والمتون أنّ طابعها العام في الخطاب والعرض لا يحفّز على التساؤلات والإشكالات فضلاً عن الاعتراض والنقد، مما يعيق الاستفهام التحليليّ في ابتداء التحصيل الذي يأتي بكيف ولماذا، فالذهن في محافل التدريس يتطبّع بكم هائل من المعلومات ويرسخها أكثر بسؤال: ماذا تعرف؟ ولا يهمه لماذا الأمر كذا ولا كيف كان كذا؟...لا وجود فيه لسؤال ولا استشكال ولا تمرين؟

يمكن إجمال أهم السلبيات التي نتجت عن أسلوب المنظومات التعليمية في هذه المرحلة في:

1- تضييق دور الاجتهاد وإغلاقه:

فهي تكرر أقوال العلماء السابقين، دون أيّة مساحة لاجتهاد أو تأمل، وهي بذلك تعطّل الفكر وتولّد العجز والخور الذهنيّ، مما يعني انتهاء حركة الإنسان الذهنيّة والقضاء عليها، وإغلاق باب الاجتهاد أجهز على قيمة البحث العلميّ والتنقيب في التراث، وهي بذلك مجرد تقليد للعلماء للسابقين، يقول ابن حزم (456ه) "ونحن نسألهم أن يعطونا في الأعصار الثلاثة المحمودة – عصر الصحابة وعصر التابعين وعصر تابعي التابعين- رجلاً واحداً قلّد عالماً قبله...فيوقنوا أنهم أحدثوا بدعة في دين الله تعالى لم يسبقهم إليها أحد"[33]، وثمة علاقة متشابكة بين "التمذهب" و"المتون" و"تضييق الاجتهاد"، فالتمذهب قَويَ التمسك به عن طريق المتون، مما أثّر على دور الاجتهاد وتغلغل التقليد. وكل مذهب قدّس ما كتب من متون في مذهبه، دون نظر أو مراجعة أو اجتهاد عقليّ أو شرعيّ. وقد جنى التعصب على العلم فعزل النصوص عن الواقع المعاش لتصبح مجرد ترديد لآراء السابقين، حيث تمّ الالتزام التآم بما سُطّر في "متون" كلّ مذهب، فمنعوا الاجتهاد خارج المتون، حتى حفظوا المتون دون الأدلة الشرعية، وقد أدى ترديد المتون وحبس النفس عليها وإحاطة العقل بسياج من شروحه وحواشيه دون التفكير في نقدها إلى القضاء على ملكة الاستنباط والاجتهاد "فكيف ينفق الإنسان رأس ماله النفيس –الوقت-في حل مقفل كلام مخلوق مثله، ويعرض عن كلام الله ورسوله الذي بعث إليه"[34].

2- انحصار العلم في نمط واحد:

حيث انقطع الناس –انقطاعاً شبه كلي-على المتون وأغفلوا ما سواها، فذهبت الأعمار والأوقات في تأليفها ونظمها وتدريسها وحفظها وشرحها، فكان أن فرض ذلك الحال الجمود على العلم، يقول الطاهر بن عاشور (ت1393ه): "نشأت عقدة اللسان واستتار المسائل تحت الألفاظ واشتغال المؤلفين عن النقد والعناية باختزال حرف أو نقص كلمة...."[35] ثم يتهم ابن عاشور أرباب المتون الواقفين بأن لديهم خوراً في التفكير، وغياب النقد العلميّ، وضعف الفهم، وإضاعة الأوقات، وخصومات بلا معنى، ومكابرة، ولجاج، وعدم تمحيص الآراء، والنقل المجرد بلا إضافة تذكر. ونتج عن ذلك ضعف همم طلاب العلم، فلم يرغبوا في مطالعة الكتب الموسوعيّة، واكتفوا بالمختصرات والمنظومات والمتون.

---

[32] الأنصاري، محمد بن حسين، **مرجع سابق**. ص 118 "بتصرّف"

[33] ابن حزم (ت 456ه)، **الإحكام في أصول الأحكام**، تحقيق أحمد شاكر، القاهرة، مطبعة العاصمة، الجزء السادس، ص ص 857-858

[34] الأنصاري **مرجع سابق**. ص ص 124-134 "بتصرّف كبير"

[35] ابن عاشور (ت 1393ه)، **أليس الصبح بقريب**، تونس، دار سحنون، ص ص 143-145.

3- الإغراق في الجزئيات

ويمكن أن نرى ذلك جلياً في مظهرين أولهما تتبع الشروح والحواشي والتقريرات القديمة، فلم يكتف "الواضعون للمتون بعبارة موغلة في الإيجاز حتى أغرقوه في وحل لا نهاية له، هو تتبع الشروح والحواشي والتقريرات لبيان هذه المتون المقفلة، ثم كان الاستسلام لهذه الشروح والحواشي وتتبّع ما فيها، والمظهر الثاني الدخول في خلافات المؤلّفين في بيان ألفاظ المتن، لا فحواه العلميّ، فأغرقوا في جزئيات الألفاظ وتفكيك العبارات، وكثرة الاعتراضات مما جعلهم يهملون الجانب العلميّ المقصود.[36]

4- تحوّل المتون عن غايتها وهدفها:

فقد تحوّلت من مقصد تيسير العلم وتقريبه، وإعداد المتعلّم للدخول في أصول العلم وترتيب مسائله إلى عكس ذلك، فأصبح الإيجاز غاية بذاته حدّ الوصول إلى الإلغاز لا التفهيم والتيسير، وذلك عبر أمرين: الأول تعقيد العبارة واستغلاق المعنى، يقول أبو الحسن الندوي (ت1420ه) "كذلك حلقات التعليم قد رحلت عنها كتب المتقدّمين، وحلّتْ محلها كتب المتأخّرين المتكلّفين، وغصّتْ بالحواشي والتقريرات والتلخيصات والمتون، التي ضن فيها مؤلفوها على القرطاس، وتعمّدوا التعقيد والغموض، وأنهم ألفوها في صناعة الاختزال، وكل ذلك ينبيء عن الانحطاط الفكريّ والعلميّ، الذي حل بالعالم الإسلامي وتغلغل في أحشائه"[37]، والأمر الثاني خروجها عن كونها وسيلة حتى أصبحت هدفاً، فانتقدوا أي متن سهل المأخذ[38].

5- تنمية التلقين وإشاعته:

لا شك أنّ للمتون دوراً كبيراً في إشاعة ثقافة التلقين، فانخداع الناس بكثرة المحفوظ لديهم، وخاصّة أنّ شدة الإيجاز يخل بالفهم، فتحوّل الذهن إلى وعاء يملأ بالمتون والملخّصات التي أفقدته القدرة على التصرّف الحرّ بفاعليّة ومسؤوليّة، ومعلوم أنّ الإكثار من التلقين المجرد بلا تأمل يقصي دور العقل في التحليل والنقد والنفوذ لغايات الأمور، مما ترتّب عليه اختلال في التوازن البنائي في التعلّم، حتى أصبح معيار التفوق هو الحفظ، فساهم في ضعف الملكة العلميّة والمهارة البحثيّة، لأنّ الطالب لم يتعلّم إلا الحفظ، والعلم حفظ وفهم واستنباط. يقول الجاحظ (ت255ه) "وكرهت الحكماء والرؤساء، أصحاب الاستنباط والتفكير جودةَ الحفظ، لمكان الاتكال عليه، وإغفال العقل من التمييز، حتى قالوا: الحفظ عذق الذهن، ولأنّ مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلداً، والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه إلى برد اليقين وعز الثقة"[39]. وهو ما ولّد عزلة المشتغلين بالعلم عن المجتمع وقضاياه، فهم يعيشون في متون لا تناسب زمانهم وقضاياه. وبسبب ذلك شنت المدارس التربويّة الحديثة حرباً طاحنة على المتون العلميّة وعلى الحفظ، فوقعت في مشكلة أخرى حين حاربت الحفظ وهي ذات المشكلة التي تعاني منها المدارس المعتمدة على المتون وهي مشكلة نقص التكامل في مسالك العلم وطرقه.

---

[36] الأنصاري **مرجع سابق**. ص ص 169-174"بتصرّف كبير"

[37] الندوي (ت 1420ه)، **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، القاهرة، مكتبة الإيمان، ص138

[38] الأنصاري **مرجع سابق**. ص ص 174-179"بتصرّف كبير"

[39] الجاحظ (ت 255ه)، **رسائل الجاحظ**، شرح علي أبو ملحم، بيروت، مكتبة الهلال، ط3،(الرسائل الأدبيّة)، ص ص 200-201

6- تجاوز مبدأ التخصص

يقول ابن عاشور (ت 1393ه) "على أنّ من أكبر الأسباب التي دعتهم إلى نظم العلوم؛ ميل طلبة العلم إلى المشاركة في تعلّم علوم جمّة، وذلك مما يضيق عليهم أزمانهم، فتوسّلوا إلى الحفظ بالمنظومات، فالطالب يحفظ لعلم القراءات منظومة حرز الأماني للشاطبي القاسم بن فيّره، والأرجوزة الألفية لابن مالك، وأرجوزة ابن عاصم في فقه المعاملات المسماة تحفة الحكّام، والسلم للأخضري في المنطق، والجوهر المكنون له في البلاغة، والخزرجية في العروض، والدرة في الفرائض والحساب، ورقم الحلل في التاريخ، والبيقونية في مصطلح الحديث، ولامية الأفعال في التصريف، ومقصورة ابن دريد في اللغة"[40]، ولا يفهم من ذلك سلبية الإلمام بالعلوم، فالتخصص يقبح بالمرء إذا كان جاهلاً بالكليّة ببعض العلوم، خاصّة الشرعيّة واللغويّة، وما أجمل التنوّع في مجالات العلوم ولكن بلا شطط، فمن السلبيّة الرغبة الإلمام بمعظم العلوم في ذهن واحد، يقول ابن حزم (ت456ه) "ومن طلب الاحتواء على كل علم أوشك أن ينقطع وينحسر، ولا يحصل على شيء"[41].

7- اختلال مفهوم "العلم" و "العالم"

أصبح العلم مجرد "محفوظات لمتون"، مهملاً التفكير والاستنباط، يقول ابن عاشور "وكأن معنى العلم عندهم سعة المحفوظات سواء من علوم الشريعة أم علوم العربيّة، فلا يعتبر العالم عالماً ما لم يكن كثير الحفظ"[42]، وأصبح معيار العالم هو إحاطته بعدة متون في علوم مختلفة مهملين مبدأ التخصص. كل ذلك ولّد ضعفاً في التعليم ترتب عليه ضعفاً في مخرجاته، وكان من نتيجته الانحطاط العلميّ، و"الغثائيّة" التي لا طائل من وراء كثرة الحفاظ فيها.[43]

وعموم القول كانت كلّ تلك السلبيات حاضرة في أذهان التربويين المعاصرين، خاصّة مع محاولة التجديد في الأساليب، فكثرت الدعوات لترك الأسلوب القديم ومحاربة طرق التلقين، فتراجع حضور المنظومات التعليميّة في المرحلة اللاحقة. وصولا إلى ما يشبه التلاشي في حاضرنا اليوم.

واقع الشعر التعليميّ وآفاق مستقبله

نتيجة للسلبيات التي أفرزتها مرحلة التعقيد اللفظيّ دخل الشعر التعليميّ في مرحلة التراجع، بل كاد أن ينعدم في المدارس النظاميّة، ولم يبق منه إلا بقايا في بعض المدارس والمعاهد الشرعيّة والمساجد وحلقات التجويد. وقل عدد الحفّاظ من الجيل الحالي، ورغم ذلك لا يمكن لأحد –مهما بالغ في النقد- أن يرفض وجود فائدة للمتون والمنظومات التي تختصر العلوم، لأنّ وجودها يعكس الاهتمام بالمعرفة، وتركها – بالكليّة- يعني التنكّر لقيمة علميّة وتربويّة وحضاريّة كانت –يوماً ما –ذات فعاليّة وحضور في حضارتنا وفكرنا، فعلينا ألا نقع في الإفراط أو التفريط، فما ينقصنا هو تفعيل مبدأ التكامل بين الوسائل المحصّلة لعلم، فكما

[40] ابن عاشور، **مرجع سابق**، ص 45.

[41] ابن حزم (ت 456ه)، **رسائل ابن حزم**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج4، ص 77.

[42] ابن عاشور، **مرجع سابق**، ص 46.

[43] **المصدر نفسه**، ص 46.

أنّ المنظومات والمتون العلميّة أهملت الفهم والنقد العلميّ والاجتهاد، فطرائق التدريس الحديثة أهملت الحفظ، وهنا لا بد من الجمع بين الفهم والتلقين والتقليد والاجتهاد والعقلانيّة والحفظ.

ومما سبق اتّضح لنا أنّ النقد الذي انصبّ على المتون يظهر في أمرين: الأول: راجع لذات العلم ويظهر ذلك في أمور منها صعوبة اللفظ في بعض المتون، فالقالب الذي قدمت به هذه العلوم غير متناسب مع قدرات بعض المتعلّمين، أضف إلى ذلك العناية الزائدة بالمصطلحات والخلاف اللغويّ فيها، وهو ما زاد الطين بلّه، كما أنّ شروح هذه المتون -وأحياناً هي ذاتها-امتزجت ببعض العلوم الأخرى كالمنطق والنحو واللغة، إضافة إلى قلة التطبيقات والتمارين العمليّة. والصعوبة الثانية: راجعة للمتلقي حيث يغيب التدرج في المنهج، وتغيب التمارين والتدريبات العمليّة، فلا يوجد تقييم وتقويم سليم لما حصّله سوى الحفظ.

وحتى نصلح الوضع علينا أن نرجع إلى الهدف من وضع هذه المتون، فمعرفة ذلك الهدف يعين على تلمّس الطريق الصحيح للتعامل مع المتون، فنحن نعلم أن هذه المتون وضعت لمراعاة العلماء لأهل زمانهم، حيث حاولوا إيصال العلوم لهم بطرق أيسر، والمراد منها أن يعرف المتلقّي أصول العلم الذي وضع له المتن، وعلى ذلك يجب أن تكون معايير اختيار المتون الناجحة وهي:

1-جودة المادة والمحتوى

فتحتوي على أصول العلم وأركانه الأساسيّة، وتترك المباحث التي تربك المتعلّم، كما تكون التعريفات والتقسيمات واضحة مانعة جامعة، فكثرة التقسيمات تحول دون إدراك المتعلّم للمادة، كما يجب أن يقلل من تشعّب الأقوال وتعارضها، فحكاية القول الضعيف -وربما الشاذ-في متنٍ وضع لصغار المتعلّمين يعيقهم، كما يجب البعد عن الاستطراد الملل، خاصة الاستطراد خارج موضوع المتن لغوياً كان أو فلسفياً أو غير ذلك.

2-أسلوب المتن وصياغته

فإذا كانت المادة هي الركيزة الأولى للمتن فالصياغة والأسلوب هي الثانية، فيجب أن يكون المتن واضح الأسلوب جملاً ومفرداتٍ وتراكيب، ومن أهم الطرق لذلك قلة المصطلحات المشكلة، وعلى المؤلّف أن يحدد المخاطبين ويختار لهم ما يناسبهم من العبارة والتراكيب ومستوى العلم. وأن يبدأ بالكليات قبل الجزئيات.

3-موافقته لقدرات المتعلمين وثقافتهم

لو كان المتن محتواه ومادته قيّمة، وأسلوبه واضح، فلا يعني ذلك أنه مناسب، بل لا بدّ من النظر إلى معيار ثالث وهو موافقته لقدرات المتعلّمين المستهدفين، ويتأكد ذلك من خلال ترتيب الموضوعات فيه وحسن عرضها بما يناسب مستواهم، وتضمّنه الأدوات والوسائل المساعدة على الاستيعاب والفهم (كالأمثلة، والأدلة المناسبة، وجمعه لعدة طرق لبيان الكلام).[44]

هذه جملة من المقترحات والحلول المكوّنة التي يمكن أن تحسّن فعالية المتون أو المنظومات العلميّة، أو تسد الخلل في تدريسها ووضعها، وتسعى لتطويرها بما يناسب العصر والمصر والزمان والمكان.

[44] الأنصاري **مرجع سابق**. ص ص 276-284"بتصرّف كبير"

على أنّ صناعة النظم التعليميّ ليست بالأمر السهل، فتطويع العلوم لتكون شعراً يسهل حفظه والاستشهاد به يتطلب براعة واقتداراً ومهارة ومعاناة. ولا يخفى أنّ في نظم العلوم أكثر من فائدة، منها :

١ – السهولة، وإتقان الحفظ، ذلك أن الشعر أسرع حفظاً من النثر.

٢ – الاختصار، وجمع المعاني الكثيرة في اللفظ الواحد والشطر البسيط، وهذا ما يجعل الطالب يتلقى المفاهيم وهو متأثر بالنظم.

٣ – القدرة على تذكر المعاني والاستشهاد بالشطر الذي يتضمن القاعدة، لأن النظم لا يعزب عن الذهن، مثل النثر."

فرغم تراجع حضور الشعر التعليميّ في واقعنا المعاصر، غير أنه من الممكن استغلال الشعر التعليميّ في وضع منهجيّة علميّة في تربية الناشئة وتعليمهم، وهم في مراحل تعليمهم الدنيا، وهي المراحل التي يكون الهدف منها متجهاً إلى تكوين الشخصيّة السويّة وغرس المعاني والمفاهيم التي يدين بها المجتمع وأخلاقيات التعليم قبل التوغل في التخصص العلميّ. فالنشء في مسيس الحاجة إلى المواعظ التي تخاطب روحه وعقله وتهذّب ذوقه وطبعه، وحسبكفي هذا المجال أرجوزة أبي العتاهية، ومن خلال الأناشيد التي تقدم المعارف مع اللحن الجميل، وفي الجانب العقليّ يمكن أن توظف الألغاز النظمية التعليميّة، فمن خلالها يمكن الحصول على المعلومة بطريق ممتع وشيّق فيه تحدٍّ ينمّي الثقافة ويساعد على اتقاد الذهن وإعماله في الفكر والتدبّر، هذا فضلاً عن أهمية المتون الملخصة لمحتوى الدروس الطويلة، لتكون بمثابة تلخيص عام للدرس.

الخاتمة

أهم النتائج التي توصّل إليها الباحث:

- فَطِنَ مُصَنِّفُو العلومِ إلى أنه بالإمكان توظيفُ نظمِ الشعر وإيقاعاته في صياغة منظومات علميّة تُسهم في تسهيل تَعَلُّمِه، وقد عرف "النظم" أو الشعر التعليميّ.

- بلغ الشعر التعليميّ أوج ازدهاره في العصرين المملوكيّ والعثماني. ومن أهم أسباب ازدهاره في هذه الفترة سقوط بغداد على يد المغول (656هـ)، حيث أحرقت الكتب واندرست المدارس، فانتشرت المنظومات لسهولة حفظها وتعذّر وجود أمهات الكتب، وكانت المنهج التربويّ الأقدر والأسهل، لتيسّر على الطلاب سبل الإلمام بالمعارف وحفظها وسرعة استحضارها وقت الحاجة.

- ظهرت في هذه الفترة أشهر المنظومات، فجاءت على سبيل المثال منظومة الشاطبيّ الجامعة في القراءات ونظم ابن الجوزي "طيّبة النشر في القراءات العشر"، وفي مجال الفقه نظم في الرَّحبي "متن الرحبية" في أحكام الإرث الإسلامي، وفي النحو كانت "ألفية ابن مالك"، ونظم في البلاغة محب الدين الحلبي أرجوزة عنوانها "مائة المعاني والبيان"، ونظم الدميري في الحيوان، وابن الياسمين في الجبر والحساب، وشاع النظم في الألغاز.

- اتّسم النظم في هذه الفترة بالاختصار المفرط، وكان من أثر هذا التقليد والتنافس في اختصار المنظومات أن جعلها تتجه اتجاهاً تربوياً خطيراً، فقد أصبحت أشبه بالألغاز التي تحتاج لمن يفكّ طلاسمها، واتّسمت بالجفاف والجمود حتى صارت منفّرة، واستغرقت في الإيجاز المخلّ حتى أصبحت أقرب للترميز منها إلى الإيضاح، فاحتاجت إلى الشروح التي تراكمت بحيث فقدت قيمتها في تقديم العلوم بإيجاز. حيث يتم إحاطة الذهن بسوار من الحواشي اللفظية والتقريرات الشكليّة، التي شغلتهم عن ذات العلم.

- يمكن إجمال أهم السلبيات التي نتجت عن أسلوب المنظومات التعليمية في هذه المرحلة في:

1- تضييق دور الاجتهاد وإغلاقه: فكان الاهتمام بحفظ المتون هو الشغل الشاغل.

2- انحصار العلم في نمط واحد: فانقطع الناس –انقطاعاً شبه كلي-على المتون وأغفلوا ما سواها.

3- الإغراق في الجزئيات:ونرى ذلك جلياً في مظهرين أولهما تتبع الشروح والحواشي والتقريرات القديمة.

4- تحوّل المتون عن غايتها وهدفها: فأصبح الإيجاز غاية بذاته حدّ الوصول إلى الإلغاز لا التفهيم والتيسير.

5- تنمية التلقين وإشاعته: فتحوّل الذهن إلى وعاء يملأ بالمتون والملخّصات التي أفقدته القدرة على التصرّف الحرّ بفاعليّة ومسؤوليّة.

6- تجاوز مبدأ التخصص: فالطالب يحفظ منظومات في عدة علوم، مغفلا جانب التخصص، فمن السلبيّة الرغبة الإلمام بمعظم العلوم في ذهن واحد.

7- اختلال مفهوم "العلم" و "العالم" فأصبح العلم مجرد "محفوظات لمتون"، مهملاً التفكير والاستنباط.

- نتيجة للسلبيات التي أفرزتها مرحلة التعقيد اللفظيّ دخل الشعر التعليميّ في مرحلة التراجع، بل كاد أن ينعدم في المدارس النظاميّة، ولم يبق منه إلا بقايا في بعض المدارس والمعاهد الشرعيّة والمساجد وحلقات التجويد.

- حتى نعالج سلبيات المتون علينا أن نرجع إلى الهدف من وضع هذه المتون، فمعرفة ذلك الهدف يعين على تلمّس الطريق الصحيح للتعامل مع المتون، فنحن نعلم أن هذه المتون وضعت لمراعاة العلماء لأهل زمانهم، حيث حاولوا إيصال العلوم لهم بطرق أيسر، والمراد منها أن يعرف المتلقّي أصول العلم الذي وضع له المتن.

- المتن الجيد هو الذي يجمع بين جودة المادة والمحتوى ووضوح الأسلوب والصياغة، ويكون موافقاً لقدرات المتعلمين وثقافتهم.

- يمكن استغلال الشعر التعليمي في وضع الأناشيد التعلمية للمرحلة الأولى، ووضع ملخصات الدروس بعد شرحها، واستغلال الألغاز النظمية لتنشيط الذهن.

المراجع والمصادر

ابن الحاجب، (ت646ه)، **شرح الوافية نظم الكافية**، تحيق موسى بناي علوان، النجف الأشرف، مطبعة الآداب.

ابن بدران (ت1346ه)، **المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل**، بيروت، مؤسسة الرسالة.

ابن حزم (ت 456ه)، **الإحكام في أصول الأحكام**، تحقيق أحمد شاكر، القاهرة، مطبعة العاصمة، الجزء السادس.

ابن حزم (ت 456ه)، **رسائل ابن حزم**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج4.

ابن خلدون (ت808ه)، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة، مكتبة نهضة مصر.

ابن عاشور (ت 1393ه)، **أليس الصبح بقريب**، تونس، دار سحنون.

الأنصاري، محمد بن حسين(1433): **تكوين الذهنية العلمية**، الرياض، دار الميمامن، الطبعة الثانية.

بن الجزري (ت 833ه)، **متن الجزريّة**، القاهرة، مكتبة القاهرة.

الجاحظ (ت 255ه)، **رسائل الجاحظ**، شرح علي أبو ملحم، بيروت، مكتبة الهلال، ط3،(الرسائل الأدبيّة).

الحربي، عبد العزيز بن علي (1424ه)، **الشرح الميسّر على ألفية ابن مالك**، الرياض، دار ابن حزم، ط1.

الحلي، صفي الدين (ت750ه)، ديوان صفي الدين الحلي، النجف الأشرف، المطبعة العلمية.
الدميري، **حياة الحيوان الكبرى**، المكتبة الإسلامية.
السعدي، أحمد محمد سعيد (2010م)، **مجموع أمهات المتون**، دمشق، دار الرواد، ط3.
السلمي، عبدالله عويقل، المتون والشروح والحواشي والتقريرات في التأليف النحوي، 2015، http://www.m-a-arabia.com/vb/showthread.php?t=9135
السيوطي(ت911ه)، **الأشباه والنظائر في النحو**، بيروت، دار الكتب العلمية، ج3.
السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ط1، تحقيق محمد أحمد جاد وآخرون، مطبعة حلبي، القاهرة.
الشاطبي، القاسم بن فيرة (ت 590ه)، **متن الشاطبيّة**، القاهرة، دار السلام.
الطنطاوي، علي (؟)، **ذكريات علي الطنطاوي**، بيروت، دار المنارة، الجزء الثاني.
عبد الله كنون (1984م)، **أدب الفقهاء**، بيروت، دار الكتاب اللبناني.
الماديني، محمد بن محمد سبط (ت907ه)، **اللمعة الماردينية في شرح الياسمينية**، تحقيق محمد سوس، الكويت.
مجهول (؟)، **مجموع مهمات المتون**، القاهرة، دار الفكر.
الندوي (ت 1420ه)، **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، القاهرة، مكتبة الإيمان.
يعقوب، علي (22 نوفمبر، 2012): "الشعر التعليمي عند الشيخ محمد بن محمد الشفيع الأغلالي من خلال إنتاجه المخطوط المتوفى (1954م)"، م**درسة الخرطوم القرآنية الانجليزية**، https://ar-ar.facebook.com

[1] يعقوب، علي (22 نوفمبر، 2012): الشعر التعليمي عند الشيخ محمد بن محمد الشفيع الأغلالي من خلال إنتاجه المخطوط المتوفى (1954م)، مدرسة الخرطوم القرآنية الانجليزية، https://ar-ar.facebook.com